فعندئذ، في ساعة الغفلة السادرة، والغفوة الغادرة، والعفوة البادرة تباغتهم العاقبة المضمونة ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذه سنة جارية ربانية في إصلاح المتخلفين خطوة خطوة، حتى إذا خطوا الخطوة الأخيرة في الأخطاء العامدة، ولم يبق إلى قلوبهم نافذة هدى وتبصرة، استأصلهم الله وأخمد نيرانهم تطهيراً للجوّ عن هؤلاء الأرجاس الأنحاس.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[1].

صحيح أن بركات السماء والأرض وتوفُّر النعم لا تستلزم أهلية المتنعمين بها، فقد ترجع النِّعمة عليهم نقمة ونعمة، ولكن الإيمان والتقى لزامهما انفتاح بركات من السماء والأرض، واللّاإيمان والطغى لزامهما انغلاق بركات، وما يرى من بركات لأهل الدركات فهي في الحق لهم دركات، حيث تعني لهم إملاءً وإملالاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2].

ذلك، وأن الخلفية الطبيعية الربانية للتخلفات عن شرعة الله هي انغلاق بركات من السماء والأرض ظاهرية وباطنية هما متعاملان في فلاح الإنسان وصلاحه، ولكن هنا خطوة ثانية ابتلائية هي ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ وهذه الحسنة هي أسوأ من السيئة بكثير!.

(١) سورة المائدة، الآيات: ٦٥، ٦٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

وترى «لو» هنا تحيل إيمان أهل القرى وتقواهم، وقضيتها هي إحالة فتح هذه البركات؟ وهذه الإحالة تنافي والمشيئة التشريعية أن يؤمن أهل القرى ويتقوا!.

إنها إحالة نسبية بسوء الاختيار، دون ذاتية أم واقعية مستغرقة، فهي إخبار عن الواقع المتخلّف لأهل القرى بسوء اختيارهم، باستثناء واقعين اثنين هما قلة قليلة أمام مسيرة التاريخ الرسالي:

١ - أهل القرى كلها زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٢ - أهل كل قرية قدر المستطاع، تعبيداً لطريق المهدي عليه السلام وتصليحاً لهم أنفسهم، فحين لا يتمكن المؤمنون أن يحصلوا على جوِّ الإيمان الخالص أو الأكثري في كلِّ القرى لأنه أمر صاحب الأمر بما وعد الله، فعليهم - إذاً - أن يصلحوا مجتمعاتهم المنزلية وفوقها كما يستطيعون، ولكي تنزل عليهم - كجمع - بركات من السماء والأرض.

ذلك، ولا تنافي المشيئة التشريعية امتناع واقع مشروع باختيار، وإن كان امتناعاً مطبقاً، فضلاً عن المطلق الذي قد يتحقق باختيار.

وهذا الحكم جمعي وليس شخصياً أن كلَّ من آمن واتقى تنزل عليه بركات من السماء والأرض - اللهم إلّا بركات معنوية - مهما حكم أحياناً للأشخاص أيضاً كما يستحقون.

فالإيمان والتقى أول ما يُصلحان هو الحياة الدنيا أن تصبح حياة علياً حيث المؤمن دنياه آخرة.

ذلك، ولأن زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه يحلّق الإيمان والتقى على أهل القرى إلّا من شذ، فقد تنزل عليهم بركات من السماء والأرض، كما تخرج له الأرض أفاليذ كبدها، ويروى فيما يُروى بهذا

الشأن - عن الإمام الحسين عليه السلام في حديثه عن الرجعة: «ولتنزلن البركة من السماء والأرض حتى أن الشجرة لتضيف بما يريد الله فيها من الثمرة وليؤكل ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء» وذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ . . .﴾[1].

أجل وهذه ضابطة ثابتة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2] وقد تشمل إلى ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ ما بشخص، اللّهم إلّا أن تمنع طوارئ وملابسات حقوق الأشخاص هنا، ولكن حقوق الجماهير محتومة مختومة بما يغيرون إلى خير فخير، أم إلى شرٍّ فشرّ.

وهنا ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ناحية منحى إيجابيات الإيمان علمية وعقيدية وعملية ثم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ منحاها السلبيات علمية وعقيدية وعملية، فهما يحلّقان على كافة الواجبات والمحرمات الأصلية والفرعية، الفردية والجماعية، وكلها اختصارة واحتصارة في كلمة الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وهنا ﴿لَفَتَحْنَا﴾ دون «خلقنا» وما أشبه، دليل أن هناك بركات في السماء والأرض هي مغلقة على أهل القرى بما ﴿كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

فهنا تعامل بين صالح الأعمال الجماهيرية وطالحها، وبين بركات من السماء والأرض ودركات في الأولى كما في الأخرى دون أية فوضى جزاف ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[3].

وبما أن صالح الإيمان دليل على حيويّة الفطرة الصالحة غير المنحرفة المنخرفة، وصدق في الإدراك، وتصادق مع حق الواقع والواقع الحق، فهو

(١) نور الثقلين ٢: ٥٢ في الخرائج والجرائح عن الحسين عليه السلام.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٩.

قوة دافعة تجمع جوانب الحيوية الإنسانية كلّها متجهة إلى جهة واحدة، مستمدة من قوة الله الذي لا إله إلّا هو، فإنها تحرّرة صالحة بالغة، عن عبودية آلهة الأرض إلى عبودية إله السماوات والأرض.

ثم وتقوى الله يقظة واعية داعية إلى ترك المحظورات وفعل المحبورات، صائنة عن الاندفاع والتهوّر والتشتت والتشطّط والغرور، و«أوثق العرى كلمة التقوى»[١] عروة يتعلق بها فتنهض من المعاثر، وتنجي من المزالّ والمزالق، فهي الحبل المتين، والمستند النضد الأمين.

لذلك فهما جناحان يطير بهما الإنسان إلى أعلى قمم الكمال الممكن لأيّ كان، حيث يسير بهما الإنسان إلى مصيرات البركات التي وعدها الله لأهل الله.

وترى لماذا هنا «بركات» وهناك «حسنة»؟ حيث الحسنة هي ما تلائم المشتهيات خيّرة أم شرّيرة، فهي بين بركات ودركات، بين نعمة هي رحمة وأخرى هي زحمة ونعمة، ولكن ﴿بَرَكَٰتٍ﴾ هي خليصة الخيرات دون تبدل إلى دركات، نتيجة الإيمان والتقوى، فكلُّ حسنة وسيئة ابتلاء، و﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هي قضية النجاح في الابتلاء بهما.

ذلك، فمن الخيرات ما هي بليات لمؤمن أو كافر مهما اختلفا فيه سقوطاً ونجاحاً، ومنها ما هي من خلفيات الإيمان والتقوى، فما هي إذاً ابتلاءات، ثم ومن الشرور ما هي ابتلاءات بين الخيّرين والشرّيرين، ومنها ما هي عقوبات لأيّ منهما مهما اختلفا في حدودها.

فالبركات النازلة على أهل الإيمان والتقوى هي بركات في النفوس والنفائس، بركات في المشاعر وكل طيبات الحياة بأسرها، إخراجاً لها عن

(١) المجازات النبوية ص ٨٤.

كلِّ أسرٍ لها يُطارد الحصر في الله، بركات تنمي الحياة وترفعها إلى قممها المعنية منها، فليست مجرد وفرة ظاهرة مع شقوةٍ وتردٍّ وانحلال.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

هنا ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ هي الظالمة غير المؤمنة ولا التقية، فهي الكافرة الطغية، فلا أمن لهم إذ لا إيمان ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ بالليل ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أو ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ وضح النهار ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كالطفولة التي لا تعني صالح الحياة الإنسانية الواقعية، فإنما تنظر إلى ظاهر لها حاضر: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1].

وذلك هو العذاب المباغت لمن يستحقونه، بعدما كلّت كل المحاولات لإيقاظهم فلم يزدهم إلّا فراراً.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

لقد مكروا الله ومكروا المؤمنين بالله بما مكروا فطرهم وعقولهم فما جزاؤهم إلّا مكر الله كما مكروا جزاءً وفاقاً، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم بما صدوا عليها منافذ الفِطَر والعقول وسائر الفكر، وكأن الله لا يسطع على مكرهم كما مكروا، أم هم لا يستحقون مكراً رغم ما مكروا، أم وليس هناك من إله هو يرصدهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

ألم يهد لهم آيات الله آفاقية وأنفسية ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ الهالكين، أو لم يهد لهم ذلك القصص الحق من مضاجع الغابرين المعروضة لهم في صحائف التاريخ الجغرافي.

﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ إصابة شاملة، ولكن الدار هي دار العمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، وإنما نصيبهم بالبعض من ذنوبهم الفاحشة التي لا يتحملها المكلفون، فقد ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[1].

أو لم يهد لهم أولاء الوارثين الأرض، بأية وراثة جزئية أم شاملة، سياسية أم اقتصادية أم روحية أمّاهيه ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ إصابة كاملة كما أصبنا الغابرين.

وترى ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ تعني بعد انقراضهم عن بكرتهم؟ ولا سابقة لذلك ولا لاحقة! فالأرض لا تعني كلّ المعمورة، بل هي أرض الحكم سياسياً وما أشبه، و﴿مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ قد يقصد إلى أهلها الميتين، أهلها الآهلين المغتصبين، وهذا هو الأكثرية المطلقة من وراثة الأرض.

مثلاً على ذلك اغتصاب حق الإمام علي عليه السلام المنصوص على خلافته في مئات من الأحاديث، ولئن يشك في غصب خلافته هذه، فغصب فدك دليل باهر لا مرد له على غضب الخلافة فأين فدك المال من خلافة الأمة!.

وهل كانت المطالبة بفدك، غير المطالبة بالخلافة للإمام علي، وهل إن اقتطاع فدك من يد فاطمة هو غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة، وإثبات الأولوية في غصب الخلافة من غصب فدك؟!.

ولقد كانت تعلم فاطمة تمام العلم أن المطالبة بفدك لن تعيد إليها الأرض، ولم تكن لتطلب أرضاً فيها نخيل، إنها كانت تطلب بإرث آخر فيه عزة النفس - فيه أصالة الحق - فيه عنفوان الرسالة - فيه امتداد أبيها

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

الرسول.. هذا هو الإرث الذي جاءت تنادي به في ساحة المسجد من خلال مطالبة فدك.

وسيان أكانت المطالبة بخطاب مدروس مرتجل، أم - حتى - بخطاب لمحة التنقيح أو الإقحام، كما يطيب القول للادعاء.

فقد يكفي أن تقود فاطمة قدميها إلى باحة المسجد - أن تقف أمام الخليفة بجبة وخمار، أن ترمي إليه نظرة شزراء - أن تحرك يداً بمعصم نخيل - أن تؤمي - أن تقف لحظة ثم تنسحب كما ينسحب الظل...

لقد شرحت في الخطاب رسالة أبيها - لا فقط لتشرح الرسالة المعروفة في أصلها لدى الحاضرين - بل لتعيّن مركزها ومركز علي من الرسالة، منددة بالخليفة أنه مغتصب ميراثها، فهل يصعب إذاً أن يغتصب ميراث الخلافة المنصوصة؟.

أجل ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ...﴾ وهم غافلون بزهوة ميراث الأرض وزهرة الأرض عما يعنى منهم!.

ولكن الحاضر الذي لا حِوَل عنه من العذاب: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سمع القلب، فما لم يسمع القلب لا يتقلب الإنسان من الردى إلى الهدى، مهما سمع بأذنه الكثير، فإنه إذاً ليس سمع القبول، فسمع الإنسان سمعان، سمع الأذن وسمع القلب، فما لم تسمع القلوب لم تتجاوز العظات الآذان، فهم من الذين ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1] سمع الإنسان، فإنما هو سمع الحيوان.

فهنا «نطبع» رفعاً دون جزم يفصلها عن جزاءً الشرط، فهو خلاف جزائه في قضية «لو» ومن الغريب عطفه على جزاءً الشرط تلحيقاً لحكمه به مع اختلاف الصيغة والصبغة!.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

إذاً فـ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ محتوم و﴿أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ مختوم إلّا ما شاء الله، ثم الطبع والختم والرين والكنان والغشاوة والصدّ والمنع هي بمعنى في هذه الدركات السبع.

ثم ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ تختص بالوارثين المذنبين، و﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هنا هي مطلق الأرض لا الأرض المطلقة، فقد تعني أي أرض انقرض أهلوها وورثها آخرون مذنبون.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الرسالية المكلفة برسالات الله، على مدار الزمن الرسالي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصا تاريخياً بعضاً ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أمام الدعوات الرسالية ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ رسولية ورسالية، ولكن ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟...﴾.

فهنا سلسلة موصولة من الرسل والرسالات بكلّ البسالات والحصالات، وتقابلها سلسلة من التكذيبات.

وهناك ثالوث من غائلاتهم إذ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وذلك: ١ - تكذيب من قبل، ٢ - فطبعٌ على قلوبهم ثم ٣ - ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ من بعد، لمكان ذلك الطبع بالطبع امتناعاً بالاختيار.

فترى أن ﴿مِن قَبْلُ ۚ﴾ هنا تعني قبل ولادهم في الذر؟ ولا يعني الذر في آيته عالماً قبل الولاد، فيه واقع التساؤل بين الله وبينهم، إذ لا يذكره أحد حتى من كمّل المؤمنين، فكيف يحتج عليهم بـ«بلى» فيه، على ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ...﴾! ولا دور للاحتجاج بما هو منسي طليق لن يذكر.

ثم لم يكن في الذر منهم ومن كلِّ الناس - أياً كان وكانوا - إلّا ﴿بَلَىٰ﴾ وهنا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾!.

فحتى ولو كان منهم «لا» فلا يستحقون بمجرده أن يطبع على قلوبهم إلّا إذا أصروا في التكذيب يوم التكليف! فقد يكفر مكلف بشرعة الله إذ لما تصله حجتها، أم وصلته ولمّا يفكر فيها، أم فكر وكذب بها عجالة دون إصرار، ولمّا يحن حين الطبع في هذه الثلاث، اللّهم إلّا إذا عاش تكذيباً بعلم وعناد ثم طال الأمد وزالت إمكانية الإيمان، فهنا دور الطبع وكما هو باهر في آياته.

وهنا ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ تنفي كينونة الإيمان منهم بما كذبوا من قبل في هذه المرحلة الأخيرة من علم وعناد، فطبع الله على قلوبهم بما كذبوا.

فـ ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ حذفاً للناصبة: «أن» تعني «للإيمان» إذاً فما كانوا للإيمان بما كذبوا، إذ خرجوا عن إمكانيته بما كذبوا لحدّ طبع الله على قلوبهم.

أم هو ﴿مِن قَبْلُ﴾ ابتعاث الرسل؟ وقد ابتدأت البشرية بابتعاث الرسل، إذ بزغت الرسالات بآدم عليه السلام! ثم لا تكذيب قبل الرسل - لو صح التكليف قبلهم - إذ كانوا ضلالاً لا على هدى ولا على ضلال التكذيب بالرسالات ولمّا تأت، لو كانت البعثات الرسالة بعد ردح من خلق المكلفين.

ثم وليس كلّ تكذيب بعد بزوغ الرسالات مما يستحق الطبع على قلوب المكذبين!، إنما هو التكذيب العاند العامد المستمر الذي لا مجال فيه للاهتداء.

أم تعني ﴿مِن قَبْلُ﴾ أنهم عاشوا زمناً للرسل أو الرسالات فكانوا مكذبين بها علماً وعناداً فطبع الله على قلوبهم، ثم استمروا في تكذيبهم بعد

هذه العيشة المكذبة النكدة، ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ لوقتٍ ما بعد ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ وكلّ ذلك كان في حضن الرسل، أو الرسالات، سواء أكانوا في فترة من الرسل والرسالات قائمة، كالذين عاشوا بين آدم وإدريس، وبين إدريس ونوح، أم وبين المسيح ومحمد عليهما السلام - كأطول فترة -: ﴿لِّتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾[1] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[2] فهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] فالفترة بين الرسل، وفيها فتور لبلاغ رسالاتهم لمكان التحريف والتجديف، إن لها دوراً دائراً مائراً في حُصالة العناد اللدود.

أم وفي غير الفترة كما بين نوح وإبراهيم وموسى وكما في آيات يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥﴾[4].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾[5] وآية الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6]. فالفترة بين الرسل هي من الظروف القاسية العاصية بطبيعة الحال، لحقل التكذيب بالرسل ورسالاتهم، فإذا جاء بعدها فقد يواجهون من قِبَل هؤلاء الألدّاء بتكذيبات وتعذيبات.

(١) سورة يس، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٤) سورة يونس، الآيتان: ٧٤، ٧٥.
(٥) سورة يونس، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.